بعد شوقي (١)

كان يتوجَّه الظَّنُّ على شوقي ـ رحمه الله ـ فيزعم الزَّاعم : أنَّ شوقي هو يحيي شعرَه ، وهو يرفع منه ، وهو يُشيعُ حوله قوَّةَ الجذب من مغناطيس الثَّروة ، والمكانة ، وأنَّ الرَّجلَ ما أوفى على الشُّعراء جميعاً ؛ لأنَّه أفضلهم؛ بل لأنَّه أغناهم ، ولا مِنْ أنَّه أقواهم قوَّةً ، بل لأنَّه أقواهم حيلةً ، وأنَّ الشَّاعر لو جاء يومُه ؛ لبطل السِّحر والسَّاحر ، فترجع العصا وهي عصا بعد أن انقلبت حيَّةً ، ويؤول هذا الشِّعرُ إلى حقيقته ، وتتَّسم الحقيقة بسِمتِها ، كأنَّ شوقي كان يعمل لشعره بقوَّة السَّموات والأرض لا بقوَّة رجلٍ من النَّاس .

فقد ذهب الرَّجلُ إلى ربِّه ، وخلا مكانه ، وبطلت كلُّ وسائله ، ونام عن شعره نومة الأبديَّة ، وتركه لما فيه ، يحفظه ، أو يضيِّعه إن كان فيه حقٌّ من الشِّعر ، أو باطلٌ ، وأصبح الشَّاعرُ هو وماله ، وجاهه ، وشعره في حكم الكلمة الَّتي يقولها الزَّمن . ولم تعد هذه الكلمة في حكمه ؛ فهل أثبتَه الزَّمن ، أو نفاه ، وهل سلم له ، أو كابره ، وهل ردَّه في أغمار الشُّعراء ، أو جعل الشُّعراء بعده أدلَّةً من أدلَّته ؟

* * *

أوَّل ما ظهر لي : أنَّ الزَّمن بعد شوقي أصبح أقوى في الدَّلالة عليه ، وأصدق في الشَّهادة له ، كما تكون الظُّلمة بعد غياب القمر شرحاً طويلاً لمعنى ذلك الضِّياء ، وإن سطعت فيها الكواكب ، وتوَقَّد منها شيءٌ ، وتلألأ شيءٌ ، فقد دلَّ الزَّمن على أنَّ ذلك الشَّأن لم يكن لشاعرٍ كالشُّعراء ، يقال في وصفه : إنَّه مفتنٌّ ، مجيدٌ ، مبدعٌ ، ولكنَّه للذي يقال فيه : إنَّه صوت بلاده ، وصيحة قومه .

كانت تحدُث الحادثة ، أو يتخالج النَّاسَ معنى من الهمِّ الَّذي يعمُّهم ، أو يستطيرهم فرحٌ من أفراح الوطن ، أو يزول عظيمٌ من العظماء ، فيزيد صفحةً في

---

(١) لمَّا توفي شوقي كتبنا لشيخ مجلاتنا (المقتطف) فصلاً طويلاً عنه ، وعن شعره ، ومنزلة شعره ، فلم نعرض لشيء من ذلك هنا . (ع) .

قلتُ : وقد نشرناه قبل هذا الفصل . (س) .

التَّاريخ ، أو ينشأ كونٌ صغيرٌ من أكوان الحضارة في الشَّرق كبنك مصر ، أو ترتجُّ زلزلةٌ في الحياة العربيَّة أينما ارتجَّت ، فإذا كلُّ ذلك قد وقع في الدُّنيا بهيئتين : إحداهما في ذهن شوقي ، فيرسل قصيدته الشَّرودَ السَّائرةَ داويةً مجلجلةً ، فلا تكاد تظهر في مصر حتَّى تلتقي حولها الأفكارُ في العالم العربيِّ كلِّه ، فتكون شعراً من أسرى الشِّعر ، وأحسنِه ، ثمَّ تجاوزه ، فإذا هي صلةٌ من أقوى الصِّلات الذِّهنيَّة بين أدباء العربيَّة ، وأوثقها ، ثمَّ تجاوزها ، فإذا هي عاطفةٌ تجمع القلوبَ على معناها ، ثمَّ تسمو فوق هذا كلِّه ، فإذا هي من هذا كلِّه زعامة مصر على الشِّعر العربيِّ .

واليوم يقع مثلُ هذا ، فتتطاير بعض الفقاقيع الشِّعريَّة من هنا ، وثَمَّ ملوَّنةً منتفخةً ماضيةً على قانون الفقاقيع في الطَّبيعة : من أنَّ لحظة وجودها هي لحظةُ فنائها ، وأنَّ ظهورها يكون ؛ لتظهر فقط ، لا لتنفع .

ولست أماري في أنَّ شعراءَ قليلين يجيدون الشِّعر ، ولهم فكرٌ ، وبيانٌ؛ ومذهبٌ ، وطريقةٌ ، ولكن ما منهم أحدٌ إلا وهو يشعر من ذات نفسه : أنَّ الحوادث لم تختره ، كما اختارت شوقي ، وأنَّه في الحياة كالواقف على باب ديوانٍ ينتظر أن يُعهد إليه ، وأن يخرج له التَّقليد ، فهو ينتظر ، وسينتظر .

وهذا عجيبٌ حتَّى كأنَّه سحرٌ من سحر الزَّمن حين تفصل الدُّنيا بين العبقريِّ الفذِّ ، وبين مَنْ يشبهونه ، أو ينافسونه بضروبٍ خفيَّةٍ من الصَّرفة ، والعوائق ، لا هي كلُّها من قوة العبقريِّ ، ولا هي كلُّها من عجز الآخرين .

وأعجبُ من ذا : أنَّ (شوقي) كان في العالم العربيِّ كأنَّه عملٌ تاريخيٌّ متميِّزٌ من أعمال مصر ، غير أنَّه مسمَّى باسم رجلٍ ، وكان على الحقيقة لا على المجاز ، كأنَّ فيه شيئاً من هذه الرُّوح التَّاريخيَّة المتغلِّبة ، الَّتي تخلدُ بأسماء الآثار الفنِّيَّة ، وتكسبُها العظمة في الوجودَين : من محلِّها ، ومن نفس الإنسان .

وأعجب من هذا ، وذلك : أنِّي لم أرَ شعراً عربيّاً يحسُن في وصف الآثار المصريَّة ما يحسن في وصفها شعر شوقي ، حتَّى لأسأل نفسي : هل تختار بعضُ الأشياء العظيمة وصفها ، ومفسِّر عظمتها ، كما تختار المرأةُ الجميلةُ عاشقها ومُستَجلي حسنها .

* * *

وما بان شوقي على غيره إلا بأنَّه رجلٌ أُفرغ في رأسه الذِّهنُ الشِّعريُّ الكبير ،

فكان في رأسه مصنعٌ عمَّاله الأعصاب ! ومادَّته المعاني ، ومهندسه الإلهام ؛ والدُّنيا ترسل إليه ، وتأخذ منه ؛ وعلامة ذلك من كلِّ شاعرٍ عظيمٍ أن تضعَ دنياه على اسمه شهادتها له ، ولهذا ما يكون بعض الشُّعراء كأنَّ اسمه في وزن اسم مملكةٍ ، فإذا قلت : شكسبير ، وإنجلترا ؛ فهما في العظمة النَّفسيَّة من وزنٍ واحدٍ ، وكذلك المتنبِّي ، والعالم العربيُّ ، وكذلك شوقي ، ومصر .

قالوا : كان الفرزدق ينقِّح الشِّعر ، وكان جرير يخشُب (أي : يُرسل شعره ، كما يجيء فلا يتنوَّق فيه ، ولا ينقِّحه) : وكان خشب جرير خيراً من تنقيح الفرزدق ، ولم ينتبه أحدٌ إلى السِّرِّ في ذلك ؛ وما هو إلا السِّرُّ الَّذي كان في شوقي بعينه ، سرّ الامتلاء الرُّوحيِّ قد أمدَّ بالطَّبع ، وأُعين بالذَّوق ، وأوتي القوَّة أن يتحوَّل بآثاره في الكلام ، فكلُّ ما كان منه ؛ فهو منه : يجيء دائماً قريباً بعضه من بعضه ، ولا يكاد ينفذ إلى شعورٍ إلا اتَّحد به .

وقد كان عمر بن ذرٍّ الواعظ البليغ[1] إذا تكلَّم في مجلسه نشر حوله جوّاً من روحه ، فيجعل كلَّ ما حوله يتموَّج بأمواجٍ نفسيَّةٍ ، فكان كلامه يعصف بالنَّاس عصف الهواء بالبحر ، يقومُ به ، ويقعد ، وكان من الوعَّاظ من يقلِّده ، ويحكيه ، ولا يدري : أنَّ بذلك يعرض الغلطة على ردِّها ، وصوابها ، فقال بعض مَنْ جالسه ، وجالسهم : ما سمعت عمر بن ذرٍّ يتكلَّم إلا ذكرت النَّفخ في الصُّور ، وما سمعت أحداً يحكيه إلا تمنَّيت أن يجلد ثمانين .

فالفرقُ روحانيٌّ طبيعيٌّ كما ترى ، لا عمل فيه لأحدٍ ، ولا لصاحبه ، وهو يشبه الفرق بين عاصفةٍ من الهواء وبين نسيمٍ من الرِّيح يُرسلان على جهتين في البحر ، ففي ناحية يلتجُّ الماء ، ويثب ، ويتضرَّب ، ويقصف قصف الرَّعد ، وفي الأخرى يترجرج ، ويتزحَّف ، ويقشعرُّ ، ويهمس كوسواس الحُلِيِّ .

والشَّأن كلّ الشَّأن للكميَّة الوِجدانيَّة في النَّفس الشَّاعرة ، أو الممتازة ، فهي الَّتي تعيِّن لهذه النَّفس عملها على وجهٍ ما ، وتهيِّئها لما يراد منها بقدرٍ ما ، وتقيمها على دأبها إلى زمنٍ ما ، وتخصُّها بخصائصها لغرضٍ ما ، وإذا أنت حقَّقتَ لم تجد

---

(١) هو عمر بن ذرٍّ الهمذانيّ الكوفيّ المتوفّى سنة (١٥٦) للهجرة ، وكان من أبلغ المتكلِّمين . (ع) .

الفروق بين النَّوابغ بعضهم من بعض إلا فروقاً في هذه الكمِّيَّة ذاتها مقداراً من مقدارٍ ، ولولا ذلك لكان أصغر العلماء أعظمَ من أكبر الشُّعراء ، فقد يكون الشَّاعر العظيم كأنَّه تلميذٌ في العلم ، ثمَّ يكون العلم كأنَّه تلميذٌ لقلب هذا الشَّاعر ، وعواطفه ؛ ولئن عجز النَّقدُ العلميُّ أن ينال من الشَّاعر العبقريِّ ؛ لقديماً عجز في كلِّ أمَّةٍ .

وقد كان فيمن حاول إسقاط شوقي مَنْ هو أوسع منه اطِّلاعاً على آداب الأمم ، وأبصرُ بأغراض الشِّعر ، وحقيقته ، وكان مع ذلك حاسداً ، شانئاً[١] ، قد ثقبَ في قلبه الحِقد ، والحاسدُ المبغضُ هو في اتِّساع الكلام ، وطُغيان العبارة أخو المحبِّ العاشق ، فكلاهما يدور الدَّم في كبده معاني ، ووساوس ، وكلاهما يجري كلامه على أصلٍ ممَّا في سريرته ، فلا تجد أحدهما إلا عالياً عالياً بمن يحبُّ ، ولا تجد الآخر إلا نازلاً نازلاً بمن يبغض ، وكان هذا النَّاقد شاعراً ، فانضاف شعره إلى حسده ، إلى بغضه ، إلى ذكائه ، إلى اطِّلاعه ، إلى جهده ، إلى طول الوقت ، وتراخي الزَّمن ، وهذه كلُّها مفرقعاتٌ نفسيةٌ ، بعضها أشد من بعضٍ كالبارود ، إلى الدِّيناميت ، إلى الميلينيت ، ولكنَّ (شوقي) كان في مرتقى لم يبلغه النَّاقد ، فانقلب جهدُ هذا عجزاً ، وأصبح البارود والتُّراب في يده بمعنىً واحدٍ[٢] .

* * *

ومن أعجب ما عجبت له من أمر هذا النَّاقد : أنِّي رأيته يقرِّر للنَّاس صواب الحقيقة بزعمه ، فإذا هو يقرِّر غلطه ، وجهله ، وتعسُّفه ، وهو في كلِّ ما يكتب عن شوقي يكون كالَّذي يرى الماء العذب، وعمله في إنبات الرَّوض وتَوشِيَتِه، وتلوينه، فيذهبَ يعيبه للنَّاس بأنَّه ليس هو البنزين . . . الَّذي يحرِّك السَّيَّارات ، والطَّيَّارات !

تناول شوقي بعد موته فجرَّده من الشَّخصيَّة ؛ أي : من حاسَّةِ الشِّعر ، ومن إدراك السِّرِّ ؛ الَّذي لا يُخلق الشَّاعر الحقُّ إلا لإدراكه ، والكشف عن حقائقه ، وكان فيما استدلَّ به على ذلك : أنَّ (شوقي) لا يحسن وصف الرَّبيع بمثل ما وصفه ابن الرُّوميِّ في قوله :

تجدُ الوحوشُ به كفايَتَها والطَّيرُ فيه عتيدةُ الطُّعم

---

(١) « شانئاً » : مبغضاً .

(٢) أحسبه يعني : العقاد . (س) .

فظبــاؤه تُضحـي بِمُنْتَطـحٍ وحمـامُـه يُضحـي بمختصـم

وزعم : أنَّ ابن الرُّوميِّ قد وُلد بحاسَّةٍ لم يولد بها شوقي ، ولهذه الحاسَّة اندمج في الطَّبيعة ، فأدرك سرَّ الرَّبيع ، وأنَّه غليان الحياة في الأحياء ، فالظِّباء تنتطح من الأشَر . . . إلخ إلخ ، وبنى على ذلك ناطحة سحابٍ . . . لا ناطحة ظباءٍ(١) .

أمَّا شوقي الشَّاعر الضَّعيف العاجز الَّذي لم يولد بمثل تلك الحاسَّة ؛ فلو أنَّه شهد ألف ربيعٍ لما أحسَّ هذا الإحساس ، ولا استطاع أن يجيء بمثل هذا القول المعجز . وكلُّ ذلك من هذا النَّاقد جهلٌ في جهلٍ ؛ في جهلٍ ، وأعاليل بأضاليل بأباطيل ، فابن الرُّوميِّ في هذا المعنى لصٌّ لا أكثر ، ولا أقلَّ ، فلم يحسَّ شيئاً ، ولا ابتدع ، ولا اخترع .

قال الجاحظ : يقال في الخِصْب (أي : الرَّبيع) : نفشَت العنز لأختها ، وخلَّفتُ أرضاً تظالمُ مِعْزاها (أي : تتظالم) ، قال : لأنَّها تنفش شعرها ، وتنصِبُ رُوقيْها في أحدِ شقَّيها ، فتنطح أختها ، وإنَّما ذاك من الأشَرِ ، (أي : حين سمِنت ، وأخصبت ، وأعجبتها نفسُها) .

فأنت ترى : أنَّ ابن الرُّومي لم يصنع شيئاً إلا : أنَّه سرق المعنى ، واللَّفظ جميعاً ، ثمَّ جاء للقافية بهذه الزِّيادة السَّخيفة الَّتي قاس فيها الحمام على الظِّباء ، والمعزى . . . فاستكرهَ الحمام على أن يختصم في زمن بعينه ، وهو يختصم في كلِّ يومٍ ، وإنَّما شرط الزِّيادة في السَّرقة الشِّعريَّة أن تضاف إلى المعنى ، فتجعله كالمنفرد بنفسه ، أو كالمخترع .

ولعمري ! لو كان للطَّبيعة مئة صورةٍ في الخيال الشِّعريِّ ، ثمَّ قدَّم شوقي للنَّاس تسعاً وتسعين منها ؛ لقال ذلك النَّاقد المتعنِّت : لا ، إلا الصُّورة الَّتي لم يقدِّمها . . .

* * *

وكان شعر شوقي في جزالته ، وسلامته كأنَّما يحمل العصا لبعض الشُّعراء ، يردُّهم بها عن السَّفسفة ، والتَّخليط ، والاضطراب في اللَّفظ ، والتَّركيب ، فكثر الاختلال في النَّاشئين من بعده ، وجاؤوا بالكلام المخلَّط الَّذي تبعث عليه رخاوة

---

(١) لا يحضرني كلام الكاتب بنصِّه ، ولكن هذا بعض معناه ، وكلُّه تهويل . (ع) .

الطَّبع ، وضعف السَّليقة ، فتراه مكشوفاً سهلاً ، ولكن سهولته أقبحُ في الذَّوق من جَفوة الأعراب على كلامهم الوحشيِّ المتروك .

والآفة : أنَّ أصحاب هذا المذهب يفرضون مذهبهم فرضاً على الشِّعر العربيِّ ، كأنَّهم يقولون للنَّاس : دعوا اللُّغة ، وخذونا نحن ! وليس في أذهانهم إلا ما اختلط عليهم من تقليد الأدب الأوربيِّ ، فكلٌّ منهم عابدٌ الحياةَ ، مندمجٌ في وَحدة الكون ، يأخذ الطَّبيعة من يد الله ، ويجاري اللانهاية ، ويفنى في اللَّذَّة ، ويعانق الفضاء ، ويغنِّي على قيثارته للنُّجوم ، وباختصارٍ : فكلٌّ منهم مجنونٌ لغويٌّ .

وأنا فلست أرى أكثر هذا الشِّعر إلا كالجَيْف ، غير أنَّهم يقولون : إنَّ الجيفة لا تعدُّ كذلك في الوجود الأعظم ، بل هي فيه عملٌ تحليليٌّ علميٌّ دقيقٌ ؛ لقد صدقوا ؛ ولكن هل يكذب مَنْ يقول : إنَّ الجيفة هي فسادٌ ، ونتنٌ ، وقذرٌ في اعتبار وجودنا الشَّخصيِّ : وجود النَّظر ، والشَّمِّ ، والانقباض ، والانبساط ، وسلامة الذَّوق ، وفساد الذَّوق ؟

* * *

وكان حاسدو شوقي يحسبون : أنَّه إذا أُزيح من طريقهم ؛ ظهر تقدُّمهم ؛ فلمَّا أُزيح من الطَّريق ؛ ظهر تأخُّرهم . . . وهذه وحدَها من عجائبه رحمه الله .

وقد كان هذا الشَّاعر العظيم هبة ثلاثة ملوكٍ للشَّعب ، فهيهات ينبغ مثله إلا إذا عمل الشَّعب في خدمة الشِّعر ، والأدب عمل ثلاثة ملوكٍ . . . وهيهات !

* * *